أنوار الصوم

بقلم: الدكتور أحمد أديب أحمد

لا تجوزُ الْمُساواةُ بين مُصْطَلَحَي "الصَّومِ والصِّيامِ"، إذْ ليسَ لهما الْمَعنى نفسُهُ، فنحنُ نُدَقِّقُ في إشاراتِ الكلامِ الإلَهِيِّ دونَ الوقوفِ على حَدِّ اللَّفظِ فَقَطْ لقولِ الإمام جعفر الصَّادق (علينا سلامُهُ): (إنَّ كتابَ اللهِ على أربعَةِ أَوجُهٍ: العِبَارةُ والإشـــارَةُ واللَّطَائِفُ والحقَائِقُ؛ فالعِبَارَةُ للعَوَامِّ والإشـــارَةُ للخَوَاصِّ واللَّطَائِفُ للأولياءِ والحقَائِقُ للأنبياءِ).

إذا دَقَّقْنا في إشاراتِ كتابِ اللهِ وَجَدْنَا كلمةَ "صِيَام" قد تَكَرَّرَتْ في سَبْعِ آياتٍ، وارْتَبَطَ الصِّيامُ في الآياتِ السَّبعةِ بالشُّهورِ كما في قوله تعالى: (فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللهِ) لأنَّ مَنْ صَامَ شَهْرًا دونَ شَهْرٍ فكأنَّما لَمْ يَصُمْ شَيئـًا. كما ارْتَبَطَ الصِّيامُ بالأيَّامِ كقوله تعالى: (فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) لأنَّ صِيَامَ الْمُؤمنِ وَاجِبٌ للأيَّامِ الثَّلاثةِ التي يَنْويها لِيُكْمِلَ تبيانَ آياتِ اللهِ، وهذا التِّبيانُ مُرْتَبـــِطٌ بصِيَامِ النَّهارِ لقوله تعـالى: (ثُمَّ أَتِمُّواْ الصـــِّيَـامَ إِلَى اللَّيْلِ) لأنَّ النَّهارَ هو دَليلُ الوجودِ والعِيَانِ لقوله تعالى: (وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى)، وقوله: (وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا)، وقوله: (وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا)، وهذا الدَّليلُ ثابتٌ في قانونِ الوجودِ لقوله عَزَّ وَجَلَّ: (فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ)، وهذا الصِّيامُ الذي هو دَلِيـلُ إثباتِ الوجودِ الإلهيِّ في الســـَّماواتِ والأرضِ هُوَ فَرْضٌ لا يَتَحَقَّقُ إيمانُ الْمُؤمنِ إلاَّ بإقَامَتِهِ لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصـــِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)، فالخِطَابُ لم يَكُنْ للمُسْلِمِينَ فَحَسْبُ، بلْ للَّذِينَ آمَنُوا وَهُمُ الَّذينَ أَقَرُّوا واسْتَقَرُّوا على معرفةِ اللهِ لقولِ أمير المؤمنين الإمام علي (م): (أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ).

لَكِنْ لِيَتمَّ التَّوحيـدُ لابـدَّ مِنَ الإفرادِ بعـد الإثبـاتِ، لـذلـكَ لم يَجْعَلِ اللهُ الدَّهرَ نَهَارًا مُتَحَرِّكًا بالْمُطْلَقِ، بَلْ أَتَمَّهُ بلَيلٍ ســـَاكِنٍ لقوله تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ ســـَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ)، وَهُوَ الْمُعَبَّرُ عنه بكلمةِ الصَّومِ الواردةِ في آيةٍ واحدةٍ هي الآيةُ (السَّادسـةُ والعشـرون) من سورةِ مريم: (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَـرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَـوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا)، فكانَ الصَّـومُ صَمتًا لِيَكتَمِلَ

الواجبُ الْمَطلوبُ من الْمُؤمنِ بالصِّيامِ تشريعًا والصَّومِ تحقيقًا لقول الإمام جعفر الصَّادق (علينا سلامُهُ): (إنَّ الصِّيامَ ليسَ من الطَّعامِ ولا من الشَّرابِ وحدَهُ، إنَّ مريمَ عليها السلام قالت: "إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا" أي صَمتًا فاحفظوا ألْسِنتَكُم وغضُّوا أبصَارَكُم).

هذا الصَّومُ عن الكلامِ له مَقامُ الإفرادِ بعدَ الإثباتِ، ليَكْتَمِلَ التَّوحيدُ ويُصْبحَ الصَّائمُ عابدًا للهِ، لأنَّ العِبَادَةَ الحَقِيقِيَّةَ لا تَكونُ في الامتناعِ عن الطَّعامِ والشَّرابِ لقولِ سيِّدنا النَّبيِّ عيسى الْمَسيح (ع): (إنَّ الذينَ يَصُومونَ ويُصَلُّونَ مَلعونونَ لأنَّهم عَمِلُوا بصُورةِ الشَّرعِ ولم يَعرفوا مَعناهُ)، بل تكونُ في تَوحِيدِ البَاري، لذلك قالَ سيِّدنا رسولُ اللهِ محمَّد (ص): (الصَّائِمُ في عِبَادَةٍ وإنْ كانَ نَائِمًا على فِرَاشِهِ مَا لَمْ يَغْتَبْ مُسْلِمًا). وإذا بَلَغَ الْمُؤمنُ دَرَجَةَ التَّوحيدِ سُتِرَ من العذابِ وهذا ما عَناهُ سيِّدنا رسولُ اللهِ (ص) بقوله: (الصَّومُ جُنَّةٌ من النَّارِ).

نكتفي لعدم الإطالة والله أعلم

الباحث الديني الدكتور أحمد أديب أحمد